غفرأنك
بقلم
مأذن محمد
دار البيت الأدبي للنشر الإلكتروني

جل الله ﷻ غفرانك جل الله ﷻ

اسم الكتاب: غفرانك

من تأليف : مآذن مُحَمَّد

تصميم الغلاف : تسنيم عماد مصطفى

تدقيق وتنسيق وتسويق: جيهان حمّادي

إدارة: أماني أحمد فكري

دار النشر: دار البيت الأدبي للنشر الإلكتروني

تاريخ النشر: 2024/08/01

الدولة: جمهورية مصر العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

ستغدو رفاتا فلا يغرنّك تقلّبك في الدنيا فما هي إلا دار زوال، لا تبتئس...

لا تهِنْ ولا تتخبّط على أبوابها، ولا تقنط من رحمة الله، كلّما جاهدْتَ ذنبا كي لا تتلوّث محاولا أن تكون من الصالحين، فإنّ الله سيعينك وتنتصر، ستتعافى كلّما هجرت ذنبا، فكلما أخضعت نفسك ملبيّا الطريق الصحيح.

ولكِ منّي سلامٌ يا صاحبة، فلا تأبهي عتبات الحياة لأنّ كلها عثرات طفيفة لتبرحي المقام الآمن، وإذا ذلّت قدمك فالله منجيكِ من شقاء حفرة أضمرت داء مهلككِ، فالله ساحبٌ بيدك ويشدّ عليك بميثاق غليظ كالحبل كان، يجرّها بقوته كي لا تسقطين بقلب تلك الهاوية.

لن تضلّ والله هاديك...

ومحمدّ مرشدك...

وصحبة الصالحين تصلحك...

♠ مقدّمة ♠

لا أحبّ أن أسير في نفس المسار المعتاد سواء أكان طريقي أو طريق الآخرين، يجب على المرء أن يكسر القاعدة الكلاسيكية المعتادة وتتخلل السطور عناصر لا متوقّعة ومفاجئة ولكنّ لا ضير من ذكر الأشياء القديمة والجميلة، لكنني سأتوقف عند وضع المقدمات لمنع الملل أو التوقف عن الاثارة التي لعلّ أحدا لا يحبذها.

تسمّى بعض القصص من منبع العبرة فقط، وهنا سُمّيَت من وحي كلمة ليس إلاّ، فلا سبيل للتعجّب حيث أنني لا أجيد رسم الكلمات أو ماهيّة التعبير بها، كل ما أعلمه أنّي حاولت-والله أعلم- أن أضع ضوءا ببعض البقع التي أصبحت صفحات بيضاء...

كلّ الشباب أو ما يُطلق عليه شباب العلا كانوا إناثا أو ذكورا يعانون من طاعون العلاقات العاطفية وبئس ما ابتلوا به، ولعل المغزى أنّ الحب والطريق إليه سبيل موحش ضللته غيمات الشهوات والهوى.

ونحن أمة الله الفقيرة إليه، أدعو لترك منكر-كما أمرنا الله ورسوله الكريم بما أتى به- عسى الله أن يهدي قلبنا ويجعلنا صالحين ويهدي القلوب ويقربنا إليه.

♠ اغفري ♠

لم أتخيّل قط أن تفلتي يدي بكل هذه البساطة لتمضي قدما تاركة لي الأطلال، وقد قيل من فينا غير مبالٍ عما يحدث وكلّ منّا ماضٍ في طريقه غير مكترث للعواقب وما يترتّب عن ذلك بعدُ.

توقعنا أنفسنا العاصية في خضم الذنوب ودواماتها، فلا ينجو منها إلا من رحم ربي، والبعض ينجرف فيها ثم إذ به تلقفه موجة تردّه على الشاطئ لينجو من الهلاك، وآخرون تلقي بهم الدوامة إلى هلاك حيث لا نجاة منه...

جذبتني دوامة الهلاك إلى الهاوية فاتحة أمامي باب التقدم والعصر الحديث عبر مواقع التواصل الاجتماعي أو ما يطلق عليه باللغة الأجنبية " السوشيال ميديا " وسقطتُ في فخها، وما لي لا أقع فيها وإني دون العشرين عاما، وإن كنت صغيرة سنّ فإنّ العقل والفكر أكبر.

وقد أتاني شاب يدعى عثمان وبدأ الحديث بيننا، كان في البداية مجرد تبادل أطراف الحديث وأخذ كلمات إلى أن تعودنا وأصبح حديثنا عادة وليس اختيارا، ثم تغلغل ذلك الشعور فينا وأصبح جمال الحديث يأخذ حيزا من قلوبنا، استمر الحال حتى بدأت أشعر بأثر غيابه إذا ما تحدثنا يوما ويتغلغل بين أنسجتي لم أكن على علم ماذا يحدث إلا أنني كنت سعيدة بذلك، تطورت العلاقة بيننا حتى أضحت صداقة وربما أكثر من ذلك، لكننا لم نجد غلافا يغطي ما نشعر به سوى تلك الصداقة وبقينا

أصدقاء فقد كنّا دائمي الحديث عما يحدث معنا في سائر أيامنا حتى أننا نتشارك الضحكات والأحاديث ووجهات النظر ببعض الأمور.

أقبل شهر رمضان الكريم علينا متهللاً يتزين بهلاله الفضّي الأخاذ على غير عادته ولربّما كان الاختلاف في عيني وليس الهلال نفسه فغالبا اعتدنا بإقباله علينا كعادته.

ولأننا مسلمون نتجنب الحديث فيه طيلة النهار حتى حلول المغرب إلا أننا بشر وتبقى المعاصي لسنا بمعصومين عنها حتى أننا لا ننتبه أننا نصوم كالهباء المنثور ونحن نعصي خالقنا بأبسط الأمور، وكأنّ الأمر أشبه بفخ نصبه إبليس وفلح فيه.

بدأ الهلال يصبح بدرا ليعود هلالا، ونحن قد اعتدنا هذا التحول الذي ينبئ برحيل شهرنا الفضيل، ها قد حزم حقائبه وخرج وكأنه حزين يحنو رأسه غاضب ومتأسف على حالنا فنحن لم ننتهز فرصة الغفران بل لم نأخذ أجورا تامة حتى، جاءنا الضيف الخفيف الثاني وكنا فارحين بما أتانا فهو العيد الأول الذي استقبلته برسائل تهنئة وديّة احتوى الكثير من عبارات الحب والوعود وقد كانت مميّزة للغاية حتى أنني نسختها واحتفظت بها بهاتفي ولم أنسَ بتاتا أن أشاركها مع صديقاتي أيضا.

ومضى يوم بعد يوم وأتى أسبوع يليه أسبوع وشهر يعقبه شهر حتى انقضى الحول، ففي حضرة المعاصي والذنوب تزيد المتعة وترتقي النفس إلى أسمى غاياتها لتصبح جامحة لا يردعها سوى الذي خلقها، ونتعدى تفاصيل لا أهمية فيها سوى البأس والحسرة، لا أود أن أطرق باب الذنوب مجددا لأنها لم تلتئم بعدُ.

بستر الله ورحمته انقضى العام الثاني وظللنا حولين كاملين وحان موعد الفطام بعد عامين وبضع أشهر تقريبا أغشتني هداية من الله تعالى شعرت بها نفسي فقد أرسل الله لي الهداية بنفس السّبل التي عصيته بها تماما فسبحان من يجعل للداء دواءً، وعندما درست المسألة في أمري فهمت مدى خطئي وقررت بدوري أن أقف عند حدودي ولا نتعدى الخزي أكثر من ذلك...

تحدثت مع عثمان ولكنه لم يولِ اهتماما بالموضوع، فكل ما كان يهابه هو أن يفقدني ليس إلا، ولكن لم يخف عذاب يوم عظيم يترقبنا، لقد ظل يأتيني بمبررات لا جدوى منها ولا فائدة مرجوّة، يتخبّط بين خوف وشكّ وبين يقين ولا يعلم ما السبيل؟ ما هو إلا منكر يواري حقيقة ذاته، طالبا مني محض انكار ذلك الشعور، ولكن كيف للمرء أن ينكر ما يعلمه؟ أ ترغب يا عثمان أن أقول لك أنّ ما نفعله شئ متأتّ من التقدم والتفتّح الحضاريّ وأننا لسنا بمعقّدين وأننا لسنا بمذنبين وكأنّ مانقوم به لايخل بالدين بتاتا...

ألا تعلم أنّ ما نقوم به يفقد ثقة أبي بي ويطرح رأسه أرضا وخجلا، لذلك علينا الاعتراف فالإنكار لا جدوى منه فهو صفة المنافقين والكفّار إذا أنكروا الحق وهم يعلمون أنّ مُحَمَّدا ﷺ مجتبيٌ من عند الله وبقية الرسل وأنّ دعوة حقّ لا باطل فيها إنما الباطل الحقيقي هو أذهانهم ويعلمون جيدا أنّ القرآن كلام الله فلا يستطيع أحدهم أن يأتي بمثله ولو بآية.

حين جاء الأمر -دعوة النبي- وسمع به اليهود جاء حيّ بن الأخطب وأخوه وقد كانا من أحبار اليهود ذهبا وسألاه فعلموا أنه نبي فلما عادا أقبلت صفيّة بنته عليهما فلم يجيباها.

قال حي بن الأخطب لأخيه هل هو فعلا؟ فأجابه: نعم، إنه نبي، فقال له: ما أنت بفاعل؟ قال: سأعاديه حتى الموت.

تالله لا أودّ أن يكون أمري مثل أمره أعلم الحقّ ولا أبالي وأمسك على يدك بالباطل وأنّي أمسكها وعلى علمي أنّ عاقبتها اغضاب ربي، عبارة " لا نفعل شيئا خاطئا" هذا الانكار أكبر خطأ.

في تلك الفترة قررت أن أبتعد وأولي ظهري بسبب تراكم الذنب فقد أثقل كاهلي وانحنى ظهري، لم أملّ من الحديث معك تكرارا عن نفس الأمر رغم أنك لم تبالِ ضلت عيناك غاشية سبب الأفكار الخاطئة ولم تحاول أن تفهم ما أرغب بقوله لك، فقد انتهت حلول الودّ عندي ولأن كل شئ من أجل رضا الرحمن يجوز فإني أقدمت على هذه الخطوة وأنا أعلم أن قلبك سيكسر مثل قلبي تماما ولأني أسعى إلى تحقيق المثل القائل "أخفّ الضرّرين..." ، أخاف علينا من سخط الله وابتلاء البعد عنه وعدم التوفيق في حياتنا ونبلغ رضاه بعد توبتنا.

أخبرتك يا عثمان مرارا أنّ ما أقوم به هو لصالحنا ولمستقبلنا، صحيح أنني لم أخبرك بحكمة ذلك ولكن مع الوقت ستدرك ما أقصد... وكلت أمري لله أن يهدي

قلبي ويهديك فأقسم لك أنّ ما نقوم به جرّاء النفس الخبيثة الأمارة بالسوء، المرء لا يعلم حجم ذنوبه ولا ثقلها ولكنه يحاول قدر امكان تجنب ما عليه تجنبه، وأني قد بكيت حالنا يا الله ورجوتك أن تجعل دعاء قلبي مستجابا أن يرزقنا الهداية والرشد ويلطف بقلوبنا ويحتوينا برحمته ويرزقنا من حيث لا نُحتسب، ودعوتك أيضا إن كان عثمان خيرا لي وأنا خير لك أن تجمعنا بحلالك .

كثيرا ما كنت أسمع مقولة اتركيه لله فإن كان خيرا لك سيكون وإن لم يكن لك سيبدلك الله خيرا منه، وإني ما يئست قط من لطف الله ورحمته وأيقنت مقولة "أنّ كل شئ نفعله لله لا يأتي إلا بخير"... مضى العام الأول وقد تركت الأرض التي ولدت بها بدأت حياة جديدة من الصفر مستعينة بالله، وقلبي لازال معلقا بالماضي يأبى أن ينسى، لم أنسَ وقد عزم حبه أن يعقد فؤادي كالفرعون لا يتزعزع، صوته يتردد على مسمعي كصوت نزيل يصرخ بين قضبان السجن مطلبه الحرية، ظللت أعتصر على مهجتي عسى أن يأتيني الله جبرا قريبا.

قطعت كل سبل الاتصال وانقطعت الأخبار عن بعضنا البعض لكنني كل ما كنت أعلمه أنّك بخير وأنّ قلبي لايزال على قيد حبك، فبفعل تأثير الفقد يصبح الوقت بطيئا إلا أننا نعمل أنه سيمرّ.

مرت سنوات بحلوها ومرها بعون الله وإرادته والله عليم بما حدث فينا، هذا اليوم ليس كأي يوم إنه بتاريخ مولدي كنت على يقين تام وثقة بالله تعالى أنّ هذا

اليوم سيكون مميزا ويحمل في جعبته مفاجأة، مرّ اليوم بسلام وأوشك على الانتهاء إلا أنه لم يحدث ما توقعت حدوثه حتى أتى وقت العشاء ورأيت هاتفي مضيئا إذ برسالة تأتيني من رقم مجهول لا أعرف من هو قد كتب لي فيها "أخبري أبيكِ أن يتصل على هذا الرقم ولا تسأليني لماذا أو من أنت لأنك ستعلمين بعد ذلك، ظننت في البداية أن الرسالة من أحد أفراد الجامعة أو مديرها يسأل عن سبب تأخر دفع الأقساط.

في الحقيقة لم يكن الأمر كما ظننته وإنما كان الأمر أنّ أبي أتاني بعد يومين قائلا لي طلبني شخص لخطبتك وحددنا الميعاد سيكون يوم الجمعة فجهزي نفسك ولنرى ما سيحدث لعلّه خيرا بإذن الله تعالى، سمعت أمي وابتسمت فرحا وأردفت قائلة: خيرا إن شاء الله.

أما أنا لم أهتم للموضوع كثيرا وتوجهت للنوم مباشرة لعلّ سبب برودتي تلك المشاعر التي لم تتوّج بزواج ممّن أحبّ ونمت وقلبي يعتصر حزنا ولكني لا أعلم كيف قضيت تلك الليلة ولكنها بلطف الله مرّت.

جاء يوم يسبق اليوم المنتظر من قبل أهلي –يوم الخميس- كان الجميع يتأهب على استعداد لاستقبال يوم الغد، وقد اختاروا لي الثياب التي سأرتديها كانت عبارة عن عباءة باللون الأزرق السماوي ومعها نقابي الأبيض الذي يشبه تماما لون السحاب المتحرك فيها.

ظننت وظننت ولكن كثرة الظن لن تجلب لي إلا الخيبة، عاودت ارسال الرقم لأبي مجددا فاتصل به وقد ذهب إلى غرفة الجلوس وهو يتكلم وعند رجوعه كان يرمقني بنظرات غريبة تملكني الخوف قليلا وبعدها شعرت بأطراف أصابعي قد تجمدت لم أعلم ما يحدث فصفو الأجواء تعكّر وقد علمت في نفسي أنه لا خير فيه، وفجأة أجد أبي قد داهمني قائلا: لا تقلقي بنيتي لا شئ يدعو للقلق...

جلسنا جميعا وسمعنا أنّ اسم الشاب عثمان، تراءت لي تلك السنوات الخمس. ياترى هل يمكن أن يكون هو ؟ أجبت نفسي : لا يمكن أن يكون هو ، ماذا سيأتي به إلينا؟ لعله تطابق أسماء ليس إلاّ. ونحن هكذا حتى رنّ هاتف أبي مرة أخرى المتصل عثمان يسأل عن عنوان المنزل وقد أكدوا قدومهم أنه سيكون عقب صلاة الجمعة وأتم والدي حديثه مع الشاب.

توجهت مباشرة بعد صلاة العشاء لغرفتي حتى أخلد للنوم ولم أتحدث كثيرا وقد ظن الجميع أنني خجلة من فكرة الزواج، ولكني لم أكن سعيدة فهذا الزواج فتح جروحا لم يضمّد سنين عدّة.

استيقظت مع تكبيرات الفجر قضيت صلاتي ودعوت الله باكية فلم أجد مهربا أفضل لي من يد الله تعالى، ولم أكن أدرك الخير المخبأ لي ولكني حوّلت ناظري نحو السماء ثم تنفس الصبح وطلعت الشمس تلون الأرجاء بأشعتها من كل جانب وكأنها تخبر العالم أنّ اليوم جميل كجمال سطوعها وكل ما هو مخبأ هو خير لنا لا محال.

توالت الساعات و ها قد أتى وقت الظهر لمحت أبي يذهب إلى المسجد للصلاة وكنا نحن قد رتبنا المنزل أعدّت أمي أطباق الضيافة ونصحتني بما عليّ فعله عند قدومهم، جاء أبي وجلسنا معا ثم رنّ الهاتف فابتسم الجميع وتوجهوا بنظراتهم المسترقة نحوي ليكتشفوا ردة فعلي.

رنّ الجرس وصاح أبي: سأستقبلهم بالخارج، أنتن استعدن.

جهزت نفسي وارتديت ثيابي ووضعت نقابي وسمعت الباب يدق وألقيت نظرة من باب غرفتي إذ بي ألمح امرأتين ورجل، سمعت كلاما آت من صوت إمرأة كانت قد خاطبتها أمي مرحبة بها ولكني لم أنتبه إلى صوت الرجل في البداية إلا أنني بعد هنية سمعت صوت مألوف على مسمعي ولم أعرف أين سمعته؟ جلسوا بضع دقائق وجاءت أختي نادتني لأقدم الضيافة كانت عبارة عن قهوة ومرطبات من نوع فاخر، انطلقت إلى المطبخ مسرعة أعددت القهوة ولازال يتردد على مسمعي صوت رجل غريب وآخر مألوف حاولت قدر الامكان تذكره لكني لم أفلح فقد خانتني ذاكرتي رغم المحاولات، حملت الصينية وخرجت ثم وقفت على المدخل قائلة السلام عليكم ولم أستطع رفع ناظري حتى أراهم لكنهم ردوا السلام، بدأت أقدم الضيافة للنساء أولا ورفعت ناظري لمحت والدته وانتقلت للمرأة الأخرى تبدو أخته نظرت لي مبتسمة ثم تقدم أخاه حتى يأخذ كأسه حتى وصلت عند الخطيب مددت الصينية نحوه فانصعق قلبي حين لمحته .

هل أعماني الشوق حتى أرى وجهه أم أنني أتخيل، هل كابوس هو ؟

أغمضت عيناي وفتحتها مرة ثانية إذ بي أرى من تعلق قلبي به وتمنيته نصيبا لي، قدمت له القهوة وسمعته قائلا لي: شكرا.

كيف ذلك؟ ماذا يحدث؟ لم أتمكن من مغادرة المكان فنفسي لم تحملني من هول الصدمة، ظللت أدعو حتى تمكنت من الخروج بينهم وعدت إلى غرفتي مسرعة، استغربت أمي من ردة فعلي ظنا منها أنني خجلت فلم تأت خلفي.

ظننت لوهلة أنّي أتخيّل، فقد خفت أن يكون خيالا فاكسر وأن يكون حقيقة فاصدم، فما السبيل إلى التوقف؟

سمعت باب غرفتي يطرق لمحت خيال أختي تسألني: ماذا بك؟ لم أستطع الاجابة ولكني توجهت للمغسل لأغسل وجهي وخرجنا معا، جلست أمامه ولم أستطع النظر إليه طلبوا مني أن تتم الرؤية الشرعية والتحدث معي قليلا وافقت وخرج الجميع ماعدا أمي بقيت واقفة أمام الباب، رفعت النقاب وأغمضت عيناي إذ بي أسمعه يهمس لي قائلا: لا تغمضي عينيك، أتخافين من أن تريني؟ فتحت عيناي رأيته هو فعلا إنه عثمان الذي أعرفه واحببته ولكن كيف ذلك؟ ثم سألني: لمَ كنت تبكين أتكذبين عيناك أم قلبك؟ أنزلي نقابك، فأنا أعلم مدى جمالك وحلاوة روحك

وقد أتيتك كما أحببت في داخلك وسأخبرك بكل إجابة لكل سؤال يراودك ولكن ليس الآن، فالجميع ينتظرنا.

منذ هذه اللحظة وأنا لا أسمع شيئا ولا أفهم ما يقال لي أنظر إليهم ولا أراهم، أسمعهم ولا أفهم كلامهم حتى انقضى الأمر ولم أعلم ماذا قالوا، انصرفوا وأنا لم أنتبه حتى...

عدت إلى الداخل وأنا مندهشة مما حدث فقد جاءني من أحببت خاطبا، لقد تغير شكله كثيرا ولكن القلب لازال كما هو لم يتغير بتاتا.

صليت المغرب ثم صلتين ركعتين وجلست على السجادة مطولا أتلو بعض من القرآن الكريم، فأتت عيناي على آية: وما نتنزل إلا بأمر ربك له، ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيّا... وما كان ربك نسيا، أذهلتني الآية فعلا أنّ وعد الله حق، وأنه لم ينسَ ما حملته من حب له في قلبي ولم ينسَ أيضا أني تخليت عنه ارضاءً لربي.

رنّ هاتفي أجبت ولم أستطع النطق بحرف حتى قال لي: أتنتظرين سماع صوتي أولا؟ ضحك عثمان ثم واصل حديثه قائلا: سأخبرك بكل شيء، قبل ثلاثة أعوام أنهيت ما كان بيننا وذهبت، لا أنكر أنني حزنت وبغضت في بادئ الأمر ظنا مني أنك لم تكني لي حبا أبدا وكنت أفكر بسلبية دائمة حتى جاء يوم الجمعة الذي ذهبت فيه للصلاة أول مرة، وكانت حينئذ خطبة عن حدود الله وانتهاك الخلوات أي عن

العلاقات بين الشاب والشابة، وصلني شعور غريب وكأن الأمر رسالة موجهة لي مباشرة وكانت كل كلمة يقولها الشيخ وقتها وكأنه كان يضرب على أوتار قلبي ضربا، لكن لم أقف عند الخطبة فقط بل بحثت في الأمر ورأيت حكمه شرعا فأيقنت مدى غفلتي التي قد أحاطت بي، بكل حرف تذكرتك وتذكرت كيف كنت تنصحيني طوال الوقت وأنا في سبات عميق ولذلك قررت وعزمت التوبة والرجوع إلى الله تعالى قبل فوات الأوان بل وحفظت القرآن وتعلمت الفقه على أصوله بفترات العطلة وأنا بالجامعة مقررا بعدها أن آتي لخطبتك بعد أن أبحث عن عنوانك الجديد حتى أني لم أنتظر تخرجي خوفا من أن تضيعي مني فنشقى ببعد بعضنا البعض على الرغم من أنني أعلم جيدا أنه نصيب لكن الخوف كان مستقرّ بقلبي.

ولعل ما شجعني أكثر على الاقدام على هذه الخطوة هو أنني تأكدت من حبك لي وما فعلته من أجلي لأن المحب يخاف على محبه إذا احب بصدق...

لن أطيل الحديث ولكن أردت اخبارك أن الجمعة القادم سيكون موعد عقد قراننا، فاستعدي لذلك، ولا أخفي عنك شيئا أنّ أمي بالبداية لم توافق وطلبت مني أن يتم ذلك بعد اكمال دراستي ولكن من حسن حظي أن أبي أيدني ورأى أن الأنسب أن نستعجل بعقد القران سيكون ذلك أفضل للطرفين وللجميع.

مرّ الأسبوع سريعا، وجاء اليوم الموعود امتزجت الفرحة بمشاعر الخوف والتوتر إلى أن حان موعد صلاة الظهر ذهبوا لعقد القران ورن هاتفي بعد نصف ساعة تماما حتى أسمعه يقول لي مهاتفا: انتهى الأمر واخيرا أصبحتِ زوجتي...

سمعت الجميع يطلق الزغاريد فرحا بما اتمّ عليه الأمر، فالآن هو زوجي الذي قرّ الله عيني به تماما كحال أم موسى عندما أودعت ولدها في النهر بعلامات من الرضا على وجهها امتزجت بحزن سكن فؤادها لكن الله أبدل حزنها وجبر قلبها وقرّ عينها به مرة أخرى ورده إليها فأزال كل خوف استوطن جوفها.

من تأمل لطف الله وخاف معصيته أتاه الخير والعوض من حيث لا يحتسب وحتى إن تأخر عوض الله فإنه كالمعجزة إن زار صاحبه، نستحضر قصة سيدنا أيوب عليه السلام سنين عدة وفي نهاية المطاف أبدله الله خيرا مما أخذ منه ونفس الأمر مع سيدنا موسى الذي لم يكن يملك شيئا ويترقب خائفا إلا أن الله أبدله خيرا حين جاءه مدين ثم عاد إليها عزيزا.

أتاني عثمان مبتسما يقول: لم أكن معك في أهم قرار كنت قد اتخذته لأجلنا أحزنتك ووضعت الذنب عليك، فكما سميّتِ، على اسمك "غفران" اغفري لي.

أردفت قائلة: ليس لنا المغفرة، وإنما العفو وأنا قد عفوت، وكما خلقتنا يا الله تقبل توبتنا واغفر لنا، إنّا نادمون وتائبون وإليك راجعون، وها نحن تحت ظل سماء حلالك التقينا، وصدق الحب بيننا، فاللهم لك الحمد وقد اتممت علينا بخيرك.

♠غفران♠

توبة من ذنب وحب حياة فهداية قلب...

بعد أن يمنّ الله عليك ويهد ي فؤادك إلى طريقه الحق، تطوى صفحات الماضي ليأتي ما هو خير ويُكتب في صفحات جديدة، ولكن نبقى تلك البقع الداكنة تلاحقك فتطغى على أعظم أيامك تجاهد حتى تخرجها فتأبى أن تتخلص منها كليا فهي تصرّ أن تُبقي على قلبك ألما...

الذنب المغفور عند الله كيف للقلب أن يشفى منه ويتعافى نهائيا؟ وكيف لا يأتيه التحسر عما ارتكب والندم يحاصره بكل جوارحك؟ هناك جروح لا تشفى بسهولة كذلك الذنب أيضا منها ما لا يمكن محوه من القلب حتى وإن تبنا منه.

فبداية الرحلة معصية وكما ذكر الشافعي بقوله: خير الذنب ما دلّ صاحبه إلى طاعة. وبعد صراع طال مع نفسي، التمست قرب الله مني، رأيته يوفقني في كل حياتي، وأيقنت مع الوقت أن الذنب هو ما يكون بين العبد وربه، فيا ربي أعوذ بك من كل ذنب يحول بيني وبين استجابتك و رضاك وعفوك، وإن كان الله هو العاصم لقلب العبد فإن العبد غير معصوم عن الذنب ونفس المرء تهلكه.

فلا خير في حبيب يفضي بك بحبه إلى غضب الله، ولا خير في علاقة اقيمت على لبنة مهتكة لا متانة فيها ولا صحة... لا خير في من دخلوا النوافذ وأغلقوا الأبواب، فالدار لا تأتي إلا من بابها ولا يتعدى هذا إلا اللص، وإن اختلت مروءة الرجل فاربطي يا فتاة سراج العفة وانطلقي...

إن الحب جزء من تكويننا الرباني فطرنا الله عليه لنحيا به بل ومهّد لنا السبل التي تحفظ حياءنا وجمالنا كنساء، وإن كانت المروءة يعني أن تحب وتدلل لك هذا يا قارورة فما خلقت إلا للحب والدلال، ولكن اعلمي جيدا من تحبين و من يستحق ذلك القلب.

ماذا إن أوتيت قطعا من العفة؟ فتسدلين عليك خمارا، وتمشين على استحياء، وتغضين طرفك، وتنتبهين إلى رنين صوتك، كوني عفيفة في السر والعلن، وإن جاءك من انتقصت مروءته فصكّ بابه، وكوني مع الله في يسرك قبل عسرك، واحفظيه في الخلوات، إياك وأن تضيعي المحارة وأنت اللؤلؤة، واختبئي بين طيات العيون، اصبري على حكم ربك فغدا تزول عنك الزائلة وتبقى لك الدائمة، ماهي إلا خطى تسير بها لتبلغ المسعى، ثم إياك أن تعتبريه عيبا إذا ارتديتِ حجابا سترك، فوالله لا عذر لك عند الله ومن أراد أن يوفقه الله سيتم توفيقه فلا تخافي وأنت تطيعين خالقك.

أذكر ذات مرة قالت لي إحدى صديقاتي أنها قبل سنوات فكرت أن تنتقب ولكن وضعها المادي لا يسمح لها أن تقتني ألبسة جديدة وهي لا تمتلك ألبسة فضفاضة إلا بضعا منها ولا تمتلك النقاب حتى، وذات يوم ذهبت لتزور بيت خالها فقد استأجر بيتا جديدا وأرادت أن تنظف أرجاء المنزل وبينما هي كذلك وجدت قطعة قماش شبيهة بالنقاب لم تتردد في أن تستعين بها مؤقتا حتى يتيسر حالها، فأخذته ونظفته وعقدته ستارا لوجهها، أرادت بشدة أن تزور الأخرة مطيعة لله

وإن كانت ظروف الحياة تأبى عكس ذلك، فقرّ الله عينها ورزقها بعد مدة ما كانت تحلم به، إن الله لا يرد من جاءه طارقا باب طاعته، اعقدي النية الصالحة يا فتاة وانوي الخير سيأتيك الله معينا فلاعون كعون الله ولا بعده عون.

إلى تلك الصديقة التي تذل نفسها وتحث على سماع الأغاني الحديثة وحضور الحفلات الموسيقية للفنانين، والتي تصطحبك معها إلى كل طريق يكون نهايته هلاكا بالنهاية إلا طريق الخير لا تعرف له مفرّ، فالصاحب ساحبٌ فهو إما يسحبك إلى النعيم أو يسحبك إلى العذاب، فاحذري من تصدقين، لا تسمعي إلا ما يرضي الله وجاهدي نفسك على عدم الخوض في وحل الرذائل والشبهات.

♠ من رفّ ♠

امرئ القيس لليلاه...

لمحتك اول مرة وأنت تبطئين المشي، تأخذ حبات البن أحداقك سكن، ترتسم ابتسامة خجولة على ثغرك، تحاول خصيلاتك الفرار من تحت قماش، أدفقت السماء عليه ازرقاق لونها أم هو بالأصل قطع منها وأنت أتيت من بين الحور تتمخترين؟ أرنو إليك كمسكر وكيف لا؟ ورؤياك تُسكر، كيف تنادين؟ لم أعلم ولكنك تشبهين السكر البني: لطيفة، وناعمة، وتضيفين على الحياة حلاوة مثل حلاوته، عدت من حيث أتيت حتى تواريت مع مغيب الشمس، أبصرها تغيب وأنت في عينها، فإذا كانت الشمس في مغيبها أنثى، فأنت كل الطيبات، وحسناء الإناث.

ما بال شوقك قد شاق فؤادي وأنه قطعة لا حول لها ولا قوة...

مالي ألقى قد أبى الجلوس على طاولتنا نزيلا؟

هل الأيام بالوصال رواجع أم اكتفيت بجمرة ولعي؟

تحرق بين الكف والفؤاد سجلات أيام لا أظنها تطوى

با هي حية تسعى وإن قال ربك عودي

جاد الوصل بينهما مرة أخرى.

تسألين وأعجز أن أجيب، كيف لي أن أحدد مقدار حبي لك؟

لا أعلم كم أحبك، ولكن أعلم أن خافقي عند كل خفقة ينادي بحرف من اسمك حتى تمضي ويأتي بندائك...

حقا لا أستطيع، فهل الحب يقاس كما السلع ويقدّر؟

ولكن أحبك بمقدار أنك إذا كنت لحنا لظللت أعزفه بإسبال على قوم صمّ، أو كنت لونا فلوني حياتي ومقلتاي بك في بلد قومه عميان، أو ربما تكون يوما، فأتمنى أن يتوقف الوقت عند عينيك لحظة أو تكونين ليلى وتبقين سرمدية وأسهو أنا في قمر قد زيّن السماء، ولمَ لا تكونين نهارا سرمديا فتنيرين المكان.

هنا ما بين مهجتك ومهجتي جبل ودّ دقيق لا يرى ولكنه متين يشد حبا عظيما ويحمل المودة والرحمة واللطف بيننا، سلام الله على مهجتك التي اعتصرت في عقرها وبجرها الحب وضحت به ضحا عوض عن ذلك القناع المزيف...

أما بعد، ألا تشتاقين مثلي؟

بدت لك كل الرسائل التي بعثتها بحديث لطيف ومشاعر جياشة، حتى تلك التي عاتبتك فيها، وعلى الرغم من هذا لم أتلقَّ أي جواب منك، كأنك كنت ترمين بها في القمامة، تلك القمامة التي توسطت كل مهمل من فؤادك، لا أعلم ما أنا بفاعل؟

الطرق لا تسلك سوى طرق القلب أو الأرض، فالمسافات تزيدنا بعدا، لكن القلوب رغم البعد تبقى متصلة إذا رغبت بالحفاظ عليه حتى إن التصقت لم تتنافر أبدا...

إنها آخر رسائلي التي أبعثها لك، لكنه ليس آخر نبض يخفق حبا، فلتجلسي

وتقرئي كلامي بصوتك علّ ذلك الصوت يخبرك عن مدى الامان الموجود بكلماتي.

إنّ الأمان أقرب ما يكون إلى الحب، وإن جئنا لنقارن فإن الحب هو تلك البذرة التي تسقى بأمان وتتغذي بالمودة وتكبر لتمتد فروعها ويقوى جذعها ويورف ظلها ثم تصبح شجرة الحب المثمرة.

إني أحسست الأمان فيك، امنتك نفسي بمحاسنها وسيئاتها، أودعت فيك فرحي، وعتبي، وحزني، وكرهي، رأيت الأمان في عينيك يجول بين مقلتيك، في رنين صوتك ولمسات يديك، خطواتك، ومجاورتك، وحديثك، وفرحك، وحزنك، وصمتك أمان، ابتسامتك أمان لي أيضا.

أرجو منك أن لا تدع أماتك يغادر حياتنا، فحياة تمتلئ خوفا لا خير فيها، فإن عزمت الرحيل لن أجبرك على المكوث رغم قربك مني، وإن أتيتني فباب قلبي بالحب يستقبلك، ولك الخيار والاختيار وأنت صاحب القرار...

فمن بعدك إذا سألتني عن السعادة سأقول لك: إن كنت تقصد سعادة حياة فأيام قد مضت، وإن كانت سعادة قلب فالقلب قد تأجج حزنا وأسى، لكن نهاية لاتنبئ بسوء بل هي نيّرة على الرغم من الأسى، أرى نورا مقبلا، ما كان ذلك الضوء؟

تستنير نهاية الطريق وقد أظلمت زواياه، لعل رؤيتي لك هي سبب سعادتي...

فالسين: سكون قلبي بجوارك، وأنت عينها وألفتها، وهلال ينير سماء مدينتنا

فتحيا بسلام وأنت سلامها، فسلام عليك وعلى قلبنا.

إن قصة قيس وليلى مثال يحتذى به في الحب، ولكن لم تكلل بالنجاح بل آلت تلك التجربة بالفراق، فهما كانا من البادية وما فعله قيس أخل بصورة القبيلة وسمعة أهلها لذلك رفضوا أن يزوجوه ليلى، فجنّ قيس من فرط حبه لليلى، ألا يكون ذلك الجنون سبب غضب الله، تلك العلاقة لا ترضي الخالق فكيف بمخلوق أن يرتضي العيش وهو يغضب ربه؟

ظل يحبها علنا وظلت هي تحبه سرا، يلتقي بها في بطن الواد ينشد أشعاره لها ويتغنى بجمالها، ويعدد الوعود ويكتب الرسائل إن غابت عنه، لم يخف الله فيها حتى حرمه الله منها بل وأذهب الله عقله، قصتهما لا تبعد كثيرا عن قصة روميو وجولييت ...

ما لكم يا عرب نسيتم الحب الحقيقي الذي نجده في قصة زينب بنت الرسول وأبو العاص؟ وقصة فاطمة وعلي بن أبي طالب؟ وقصة نبي الله وعائشة رضي الله عنها؟ وقصة عثمان وأم كلثوم رضي الله عنهم؟ الحب كامن في ديننا وأخيار الحب حب طاهر عفيف لا نجاسة فيه.

فتح الفقد مصراعيه، فكل فاقد وإن كان قد فقد دبوس ما فليدخل عبره...

وكيف للمرء أن يشتاق هكذا؟ إذا حنّ لعرض زائل قال: ما هي إلا دنيا، وإن انطوت مهجته أسى عن فقد داره، ورحيل أرضه، وضياع ربيع الوطن، يجود بالوصل العزاء مكتفا، قطع العزاء بضيف مطعطع، ومسودّ الثياب إذا جنّ الليل لم يكد يرى،

أنهى ذهول الفكر قائلا: أوليس الفقد واحدا؟ فكيف تنعون فقد الموطن ولا تأت بذكرى الرفاق منها بمطرح؟ ألا والله لا أحبذ الفتى إذا أخطأ لم يعترف..

ما الوطن إلا وطنا وما سمي بوطن إلا مع الخل، فهم أهل الحب ومصدر الحب وبيت الدفء والمرح.

عندما تختنق من فرط الشعور ولا تجد كتفا تضع عليه أوزار قلبك تهرع لتحمل قلمك وتضع حرفا بعد الحرف تلتصق سويا بقطرات الدمع لتتكون كلمة ثم جملة ذات معنى على سطح الورقة...

في كل المرات التي حاولت فيها التحرر من ذاتي إلا أنّ إذا ما تعلق الأمر بذكراك ينهار فؤادي مكبا من الشوق والعتب والحزن.

عندما عجز سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن حمل نعش حبيبته فاطمة رضي الله عنها لم يكن من ثقل الوزن بل كان قلبه قد ثقل من كثرة الحزن، أ تتخيل يا صديقي القارئ حجم الحزن الذي كان بقلب علي بن أبي طالب؟

إن الفقد عالم آخر يأخذ إليه زوار رغما عنهم، والفقد أنواع منا من فقد الحياة ومنا من فقد نفسه، صحيح أن كلاهما صعب لكني لا أعلم أيهما أكثر عسرا.

العسر أن أعلم أن من أحب موجود على نفس الأرض ولكني لا أستطيع رؤيته، أرغب في تأمل تفاصيل وجهه، وسماع صوته، أن نجلس معا ونتبادل أطراف الحديث بل أعلم أن من الصعب أن تنقطع الصلة بينكما كانفصال الهواء عن الأرض أو الماء عن الحياة، تظل على يقين أنه لا لقاء بينكما إلا في دار البقاء، فقط تبقى صلة الدعاء تجمع روحنا في الغيب دون أن نعلم ذلك.

ينفطر فؤادك وتتبعثر أفكارك ولكن ليس بنفس اللحظة، ودليل على مرارة الفراق بكاء يعقوب عليه السلام على فلذة كبده يوسف وبكاء الرسول على ابنه إبراهيم وظل الحزن يخيم على القلوب ما قبل بلوغ الفرج.

وظلت السيدة زينب رضي الله عنها بعد فراقها من زوجها أبو العاص رضي الله عنه قبل إسلامه ستّ سنوات كانت في المدينة وبقي هو في مكة بتلك الفترة عانت السيدة زينب كثيرا حتى هو لم يخفَ عنه الحزن لكنهما اتخذا الصبر رفيقا لهما إلى أن أسلم وجمع الله بينهما ناظرين نحو المستقبل.

ويبقى السؤال:

هل الفقدان في سبيل الله فقد؟

وهل الموت في سبيل الله موت؟

لا الفقد فقد ولا الموت موت...

فمن يرى في خضم الكرب الموت صبحا وعشية كيف حالكم؟

أتت عليكم الحياة بالموت وحوصرتم به، ها نحن نصبح على فقد أرواح جميلة الصحبة بوطن ودّع الحياة منذ زمن اشترينا الجنة جوار ربنا، لأنها دنيا فلا تستحق كل هذا العراك... ولا أحد يرجو من أحد منفعة، كلهم يحتسبون إلى ربهم فهو القاضي من يطلق حكمه بين عباده.

وإن تغافل الخطاؤون فالله ليس بغافل عما يفعلون، كيف ينامون مرتاحي البال؟ ألم يدركوا عقاب الله وقت الغفلة، فيأتيهم العذاب فجرا أو ليلا أو حتى نهارا في عز يقظتهم، فقد فُقدت العباد والأراضي التي يعبد فيها الخالق، وفقدنا كلنا حق الشعور بالحياة، فلا السالمون يعيشون بسلام ولا المعذبون يعرفون الراحة.

إنّ أصعب أنواع الشعور شعور الفقد والوحدة، فكلما كتبت عنه خذلتني كلماتي وخذلني قلمي، فيتحول حالي إلى هائمة تقلب الصفحات كامرأة تحمل رضيعها المريض لا تدري أين تضعه أو كيف تحميه من أذى الحياة... أتوجه إلى سريري

مباشرة لأنام، فتأتيني ذكرى الصحابة التابعة لرضوان عليه السلام، يتراوى لي كيف صمدوا عند ذلك الفقد الجلل؟ وحين ذيع أن مُحَمَّدا قد مات كيف تحملوا هذه الخبر؟ تالله إنه خبر تقشعر له الأبدان، فلا فقد كفقد النبي مُحَمَّد ولا حزن يضاهي ذلك الحزن، لقد فقدوا أباهم العطوف، ومعلمهم الجليل، وسيدهم ونبيهم الشريف، ولكنهم رغم ذلك صبروا.

رحم الله أبو بكر كيف ثبت فؤاده حتى خطب على الناس قائلا الخبر وللم شتات أمة من بعده، بعد فقد سيدنا مُحَمَّد يستصغر المرء كل فقد ومصيبة، وليس لنا إلا ندعو الله يثبتنا ويثبت قلوبنا عند الفزع والكرب والمحن.

♠ تضاريس ♠

من حفريات عائلية...

حين نزول الغيث، جالت بيننا الأسقف، يأتي الأمر إذا اجتمع الجميع عند طاولة الأكل، نتناول الفطور ونحتسي الشاي ونشرب القهوة، ونتبادل المواضيع ونروي الحكايات فتحيطنا المحبة من كل جانب، إنها العائلة لفظ شاسع ملئ بالمعاني، تأملتها لوهلة فوجدت بعضا من مفاهيمها برأسي تجول متسائلة لمَ سميت عائلة؟

لعل العين فيها تعود إلى العناية والعطف فيها بين أفرادها كل محبة تدل على أن كل فرد موجود معك ولأجلك، والألف تدل على أسوار الترابط بين أفرادها والأمان الذي يحق للفدر أن ينعم وسطه، مادام المرء حيا فإن الأسوار لا تُهدم...

والهمزة تأتي لتخبرنا عن الألفة بين الإخوة، لقد سموهم هكذا لخروجهم من نفس البطن كالثمرة تماما عندما انشقت أعطت عددا كبيرا ...

واللام لقاء بين صفتي اللطف والعطف طالما يوجد تكافؤ بينهم...

والتاء تخبرنا عن تقارب الأرواح حبا وتعلقا وتلاحم بين الأفئدة فترتقي النفس بحبها وبود تكنه لفرد عائلتها واجتماعهم القوي دليل على قوة السقف الواحد الذين يعيشون تحته.

على الرغم من كل هذا يبقى السؤال:

هل يسقط ناموس الحق عن العائل وربّ البيت؟

الإجابة هي: يظل الحق حقا، لا يزول مع عمرٍ أو منصبٍ أو حتى قدرٍ.

يحكى قديما أن الآباء ظلوا يقمعون أبناءهم، يلفون اخطاءهم بلفائف من حرير كتب عليها بالبنط العريض: نحن أهلكم، لا نخطئ البتة بل أنتم دائما على خطأ.

هل ظن الأهل أنّ ملك من السماء نزل منزه من الأخطاء؟ ظل الأبناء يعانون الكبت بشتى أنواعه، وسرقة أحلامهم بل وتحطيمها أمام أعينهم، لذلك لم يبقَ سبيل للحلم غير بأقصى بقاع الأرض ونضرب مثالا على ذلك تلك الأرض المهجورة التي اشتهرت بالأرض الوردية أو ما يطلق عليها بغزل البنات، هُجرت تلك الأرض لوقت طويل حتى تساقطت حلوى الأشجار بها بدل من الأوراق المعروفة عنها، تغير لونها الوردي حتى أصبحت رمادية اللون ثم تحولت إلى منفى بعد أن كانت أرض الأحلام، تنفى منها كل الأحلام الحميلة المتعلقة بالمستقبل وكأنها كينونة لروح بريئة تجملت باللطف لكن سرعان ما أحرقتها شرارة التخلف والرجعية.

إن القانون ليس دائما عادلا، حيث أنه لا يستطيع إنسان قط أن يحقق العدل على وجه الأرض، فالعادل الوحيد الذي سيرد كل الخلق إليه ويقيم محكمة العدل بين عباده، ستحاسبون على كل قطرة دم اريقت هدرا و على دمع نزل بحرارة نفسٍ طرقتموها بمطارق الظلم، وعلى جسور تراكمات من الخدوش التي أحدثتموها

في النفوس، تلك التراكمات التي بنيت تحت سماء قهركم، فأصبحت تطل على نوافذ اليأس يكسوها البهتان، فوق كل ذي ظلم قادر على أن يقيم العدل فلا تبتئس معك قدرة الله ومعجزاته.

تظل الأسرة هي البيت الآمن، الكتف الذي نتكئ عليه حين الانكسار، والصوت الذي تستأمن به قلوبنا عندما يزور الخوف جوفنا.

ألف الأسرة: اتحاد، وأمان، والتزام بالبقاء معا، وإحسان.

والسين: ماهي إلا سكون الشعور، وسلام القلب الذي أتعبته الحياة.

الراء: رضا ورفق، وربيع يزهر وسط المنزل الذي لطالما سقي بالحب شجيرات الأرواح فارتقت.

والتاء: تأكيد على كل الوعود التي قطعت وذكرت، وترنم بها، وسلام الله على أسرة كانت سندا وتكاتفت معا وأعانت ثم أنبتت زرعا ملئ بالخير ونشرت خيرا.

بعضا من...

♠اللطف♠

أنت عفيفة، وطاهرة، وكريمة، ومكرّمة، وغالية، وعالية، وصانعة الرجال، ونصف المجتمع، ومدرّسة الأجيال، وكتف صلب رغم رقته، وقلب حديديّ رغم لينه ولطفه، قوتك هي الحب والسلام، تجدين صخرة وبفضل لينك تصنعين اجمل زهرة، أنت حواء منبع اللطف والأمان.

تبكين وتحمر السماء لك، تذبل أقحوانات المرج عوض قلبك، ثم يغمض النهار أجفانه، فيأتي ليلة ويظل نهارك، فإن أحاط الغسق بمقلتيك، تساقطت شجيرات مثمرة وأصبح وجهك شاحبا كمن به سقم، إنه داء أصابك وليس بداء، قل للأيام مهلا ! فرفيق لله يواري سوؤها.

لا تذبلي ولا تتساقطي بل ازهري كأنّ لم يزرك الخريف يوما.

يسفر الصبح مجاهدا محى غياهب الليل، فيلوح قبس قبل مطلع الشمس، نتعجب أتشرق الشمس باكرا؟ لا، إنه ضياء وجهك، فإن كل جمال انصبّ فوقك ففجّري نهر الزبرقان فيك، رقيقة أنت كنسيج حرير مخمليّ صافية كماء جدول عذب، ووجهك بتلة وضعت على ساق جذع ثم فاح شذى صوتك إنك في كل مكان وردة، فأنت جميلة وابتسامتك أجمل، وعيناك جميلة، فيا سبحان الله ! بياضك كبياض الحليب وصفاوته، أو كزهرة الأقحوان تتمايل مع هبّ النسمات الصباحية في حقل واسع كعيناك أم تلك السمراء كلون الشوكولا تماما أم كلون البنّ؟ ففنجان قهوة يحتسي عند الصباح؟ وقطعة سكر بنية تذوب في كأس نبضي ... فسلام على قلبك أيتها الجميلة...